

الأثر النفسي للطبيعة في شعر ابن الرومي

د. سلام احمد خلف
جامعة بغداد/ كلية الآداب

مقدمة

كانت الطبيعة صامتها ومتحركها من قديم الزمن موضع اهتمام الإنسان، يلجأ إليها للتعبير والتمثيل فقد امتزج بها حيث استطاع أن يشاهدها بسهولة.

أما وصف الطبيعة في الأدب العربي فليس بحديث أيضا وقد عرف الأدباء والشعراء الطبيعة لامتزاجهم بها واشتهر كثيرون منهم بوصفها كامرئ القيس وذو الرمة والبحثري وابن الرومي واستمدوا واستلهموا من مظاهرها في تشبيهاتهم وتمثيلاتهم وتعبيرهم الشعرية وفي توضيح كلامهم.

وقد قام النقاد بالبحث عن الطبيعة ووصفها في الشعر العربي في العصور الأدبية الماضية عامة وفي شعر شاعر معين خاصة.

أما الشاعر الذي اشتهر بوصف الطبيعة وبديده الخالص إزاءها في العصر العباسي الثاني فهو ابن الرومي الذي لم يقد أحد من الدارسين بالبحث عن الطبيعة ووصفها وانعكاسها في شعره بشكل مفصل.

فله أوصاف جميلة في وصف الطبيعة صامتها ومتحركها وكثرة هذه الأوصاف تمكن المؤلف من أن يتناولها في أكثر من مقال وهذا المقال يبحث عن أشعاره التي تتعلق بتصوير وصف الطبيعة المتحركة أو الحية.

فبعد إجمال البحث حول وصف الطبيعة في ديوانه نتناول كيفية تعامله مع الطبيعة الحية فنجد أسماء وأوصاف عديد من الحيوانات الأليفة والوحشية حيث وصفها وصفا دقيقا لا مثيل له أحيين كثيرة.

الفصل الأول

المبحث الأول: وصف الطبيعة في شعر ابن الرومي

قد يسهل الكلام على الوصف في شعر ابن الرومي لأنه اختص به واعتمده على الرغم من إجادته لفنون شعرية الشائعة في الأدب العربي في القرن الثاني للهجرة كالمديح والرتاء والغزل والهجاء وغير ذلك من الفنون، لكن ظهرت براعته وقدرته في الوصف أكثر من براعته في بقية الفنون، فإن الوصف "مزية ابن الرومي الأولى عالج به مختلف أبوابه الشعرية وبه عبر عن أحاسيسه الداخلية"^(١) لذلك صار من ابرع وأشهر الوصافين في الأدب العربي خاصة في تصويره الطبيعة واندماجه فيها وربما كان هذا الاندماج ولید فشله في المجتمع النكبات التي توالى عليه في الحياة كما لو كان قد هرب من واقعه، بالتجائه إلى الطبيعة حتي ينسى في أكنافها ألمه.^(٢)

لقد امتزجت نفسية الشاعر بنفسية الطبيعة، فلقى بين أحضانها كل ما حرمته إياه الحياة، إن عالم الطبيعة في شرعه هو عالم الإنسان نفسه، لذلك كان يضيف عليه حالاته الداخلية ويحمله ما يزخر به وجدانه من انفعالات.

استمد في أوصافه لها من التشبيه وجعل الأشياء الثمينة والأحجار الكريمة كمثبه به في وصفه للطبيعة لرواجها في عصره كما استمد من التشخيص فشخصها وأعطاه الشعور.

خصائصه في وصف الطبيعة

كان قد أحب الطبيعة وعشقها كمن عشق محبوبه ومنحها الحياة، فهي عنده كائن حي، يحب وبناجي، فنرى هذه الميزة في كثير من أوصافه؛ في وصفه لمظاهر الربيع من أزهار وأشجار وفي وصفه للشمس.

كان متيقظ الخيال والحواس يصف كل جوانبها ويشترك في تصويره جميع حواسه، حاسة السمع والبصر والشم والذوق والخيال، ففي وصفه الروضة، يصفها من كل جوانبها، من جهة السمع يصور أصوات الطيور؛ ومن جهة العين يصور مشاهد جمالها؛ ومن جهة الشم يصور رائحة أزهارها ونباتها وكذلك في بقية المشاهد. انظر داليتة التي مطلعها:

ورياس تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبرار^(٣)

كما كان له قدرة فائقة في التصوير؛ تصوير الألوان والأشكال والحركات وتظهر قدرته في تصوير حركة الأشياء، لأن تصوير الحركة أصعب من بقية التصاوير لعدم توقفه في العين؛^(٤)

كان قد استمد من التشخيص في تصوير الطبيعة وأعطاهما الشعور والحياة الإنسانية كما تكون شجرة العوسج (شجرة ذو شوك) عنده ملعونة حينما يقول:

فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكا بلا ثمرٍ نراه^(٥)

أو الشمس المريضة تضع خدّها الاضرع على الأرض حينما يقول:

وقد رنقت شمس الأصل ونفّضت على الأفق الغربي ورسًا مذعذعا

ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خدًا إلى الأرض أضرعا^(٦)

من جانب آخر "كان نهماً وشرهاً ولبي هذه الشراة وأثرت في تصاويره، لذلك إذا

كان يحب شيئاً مثل العنب والموز والسمك، يصير ذلك الشيء ذا احترام عنده ويصور كشيء مقدس ويصف جوانبه المحبوبة لمعدته"^(٧) إذ كان ذا معدة شيطانها الرجيم:

لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها الرجيم^(٨)

المبحث الثاني: الطبيعة الحية عند ابن الرومي

الطبيعة حية كلها عند ابن الرومي، إذ "انه منحها الحياة وقد يؤخذ بأحمرها وأبيضها

وأصفرها وأخضرها ثم وصفها وصفا جميلاً"^(٩) فيعرف الربيع حياة تتحرك في الوحوش

والطير، كما يعرفه زخرفاً تتحلى به الأرض والسماء حينما يقول:

تجد الوحوش به كفايتها والطير فيه عتيدة الطعم

فظباؤه تضحى بمنطح وحمامه يضحى بمختصم^(١٠)

ونظر شاعرنا إلى الطيور إما بعينه وإما بنفسه، فوصفها حيناً وصفاً حسياً مادياً

ووصفها حيناً آخر وصفاً وجدانياً.^(١١)

وصف ابن الرومي بعض الطيور المائية والعقاب والظليم وصفًا حسيًا في قصيدة طردية تذكرنا قصيدة إمرى القيس في وصفه الصيد. صرح ابن الرومي فيها أنه ذهب مع رفاقه للصيد بالسهام صباحًا فقال:

وقد أعتدي للطيّر والطيّر هجع ولو أوجست مغداي ما بتن هجعا
بخلّين تما بي ثلاثه إخوة جسومهم شتى وأرواحهم معا^(١٢)

كما يتصور مشهد الطيور المائية على ساحل الأنهار معبرًا عنها ببسات الماء، فيشبه مشهدها فوق الماء عند ارتفاع الشمس في الضحى بالبسط الملونة المزركشة التي تفرش في صالات ملوك الفرس أثناء حفلاتهم الخاصة، فيقول:

كأنّ بنات الماء في صرح متّيه إذا ما علا روق الضحى فترفعنا
زرابي كسرى بثّها في صحانه ليحضر وفدًا أو ليجمع مجمعا^(١٣)
يتابع قوله في وصف هذا المشهد وبصوره من جهة امتزاج ألوان الطيور بضوء الشمس فيقول:

ترك ربيعًا في خريف وروضة على لجة بدعًا من الأمر مبدعا^(١٤)
وصور ابن الرومي في قصيدة رثا بها أمه، بعض الكائنات القوية تصويرًا عينيًا يقصد من خلالها بيان غلبه الدهر على هذه المخلوقات كلها في الدنيا^(١٥)، فالاستمداد العقلي هذا يتناول الطيور القوية والجارحة مثل العقاب والظليم.

كما يصور في الأبيات التالية انثى العقاب ويصفها من حيث المنظر والصفات الذاتية فيصف شعرها بالإسوداد والشعوثة كما يصفها بالكبر والأنفة:

ولا لقوة شعواء تلحم فرخها خدائية شماء في شاهق اشم^(١٦)

ثم يصف قدرتها على الصيد وعدم فقرها بسبب وجود اللحوم المختلفة لها فيقول:

بكور على الأقناس غير مخلة كأنها في كلّ شارقة وحم^(١٧)

بعد ذلك يشير إلى استطاعتها على الصيد في اشتداد البرد حين لم تستطع بقية الحيوانات على الخروج من مساكنها فيقول:

تبّيت إذا ما أجر القر غيرها ترقق رفض الطلّ في ريشها الأحم^(١٨)

والطائر الآخر الذي وصفه في قصيدته هو الظليم وهو من الطيور القوية المسرعة في الصحراء، يصور أولاً إكتناز لحمه ورأسه الأصلع فيقول:

ولأن قنق خاظم البضيع صمصح من الآكلات النار تأتج في الفحم^(١٩)

ثم يصور قدرته على أكل أي شيء حتى الأحجار الصلبة وإستطاعته على هضمها فيشبهه بطنه بالزق الذي يذوب فيه الأشياء الجامدة قائلاً:

يصوم فلا يحوي ويملاً بطنه بما شاء من زاد ولا يهرب البشم ويبلغ أفلاذ الحديد جوامداً فيسبكها في قعر كير قد احتدم^(٢٠)

وأخيراً يصور هيئته فيشبهه من هذه الناحية بالفحل قائلاً:

ترامت به الأحوال حتى بنينه نهاراً وليلا بنية الفحل ذي القطم^(٢١)

أما وصفه الوجداني الذي ينظر فيه إلى الطيور بنفسه بدلاً من حدقته فيتعلق بطيور الرياض والبساتين وخاصة الحمام منها، يعطي في هذا النوع من الوصف للطيور الحياة والصفات البشرية ويذهب بعالم الإنسان إلى عالم الحيوان الذي تحكم فيه الغريزة بدل التفكير والتعلق فالطيور عنده تعشق وتظهر غرامها بجهازة^(٢٢)

غرد الطير في الرياض وناحا وشكا العشق والغرام وباحا

في هذا المجال ان الطيور عنده تنقسم إلى قسمين؛ قسم يتمتع بقرينه فيفرح وقسم بعيد عن قرينه فيحزن:

تتداعي بها حمام شتى كالبوaki وكالقين الشواذي

من مثانٍ ممتعاتٍ قرانٍ وفردٍ مفجعاتٍ وحادٍ

تتغني القران منهن في الأيك وتبكي الفراد شجو الفراد^(٢٣)

هذه الحمام الفراد ليست إلا نفسه المكبوتة والشاعر تجاوز عن هذا المظهر العادي المتشابه وأناط به واقعا جديدا من واقع الإنسان أو بالأحرى من واقعه الخاص، فجعل الفريدة من الحمام تبكي انفرادها كما يبكي هو وحشته وجعل الحمام القران تطرب وتتعم بالمتعة التي يتحسر عليها في انفراده^(٢٤)

وجاء وصف بعض الحيوانات الأليفة والوحشية في شعر ابن الرومي وكان في وصفه لها إما مقلدا شعراء العرب قبله وخاصة الجاهليين منهم في وصفهم راحلتهم وتشبيهها بالثور الوحشي واستطرداهم إلى وصفه وإما قام بوصفها مستطردا من الموضوعات الأخرى مستمدا من خياله، فقلما جعل وصفها موضوعاً لشعره^(٢٥)، وصف شاعرنا الأسد والإبل والثور الوحشي والسمك والصل والفرس والفيل والفهد، نأتي هنا بأوصافه لها: "يصف ابن الرومي الأسد حيناً يفخر بأجداده ونفسه ويدعى فيها أن الأسد أقل صولة وشجاعة منهم بعد أن وصف منظر الأسد وصولته وشجاعته وفضله علي جميع الحيوانات"^(٢٦)

فما اسد جهم المحيا شتيمه قساقصة ورد السبال غضنفر
مسمي بأسماء فمنهن ضيغم ومنهن ضرغام ومنهن قسور^(٢٧)
ثم يصور عينيه فيشبههما بشهاب من النار في الليل من جهة الحمرة قائلاً:
يدير إذا جن الظلام حجابيه شهاب لظى يغشى له أمتور^(٢٨)
بعد ذلك يصور برائته والدماء الموجودة عليها فيشبه البرائن بنصف الهلال ويشبه الدماء بالخضاب:

وحجن كأنصاف الأهلة لايني بهن خضاب من دم الجوف احمر^(٢٩)
ثم يبالغ في وصف زئيره حين ينسب إليه انشقاق الأحجار الصلبة فيقول:
له ذمرات حين يوعد قرنه تكاد له صم السلام تطرف^(٣٠)
وصور ابن الرومي في قصيدة ذهابه إلى الصيد وخاصة صيد الثور الوحشي فيصف فيها صيده صباحاً بالرمح والحرية" ولكن يبدو أن تلك الأقوال تكون من وحي خياله ومحاكاته الأقدمين ولم تكن واقعية، لأنه كان ذا نفس يخاف من الأمكنة البعيدة والخالية"^(٣١)
أما القصيدة فيقول فيها:

وقد أغتدي للوحش والوحش هجع ولو نذرت بي لم تبت وهي هجد
فيشفي بي الثور القصي مكانه بحيث يراعيه الأصل الخفיד
أمرت به رمحا غيوراً فخاضه ذليلاً كما شك النقلة مسرد
فخر لروقيه صريعاً تخاله يعصفر من تاموره أو يفرصد^(٣٢)

وحينما يتكلم عن مصائب الدهر شاكيًا عنه حيث يقصد من تصويره غلبة الدهر عليه مع قدرته في الحياة يراه ثعبانًا مخيفًا سمه قاتل للآخرين

ولا صِلْ أصلاً يبيت مراقباً بنهشته مقدار نفسٍ متى يحم^(٣٣)

ثم يصور انيابه و وجود السم فيها فيشبه قطرات سمه بقطرات الدسم قائلاً:

يشول بأنياب شواها مقاتل يقطر من أطرافها السم كالدسم^(٣٤)

يتابع قوله في تصويره ويصف قدرته على الزحف فيشبه الصوت الحاصل من زحفه بصوت غليان الماء في القدر قائلاً:

زحوف لدى ألمسي كأن سحيفه إذا انساب في جنح الظلام نشيش حم^(٣٥)

وصف شاعرنا الفرس في موضعين: في قصيدة يصوره ويصف ذنبه بالطول وكثرة الشعر والاسترسال قائلاً:

ذنوب يمس الأرض عند صيامه بضاف يواري فرجه سبط ألهب^(٣٦)

كما يشبه سرعته بسرعة الكلاب:

له عند إيغال الطريدة في الوغى أجاري مضمون لها درك الطلب^(٣٧)

في موضع آخر يصفه وشبهه من جهة المنظر بالجن قائلاً:

وسمت نواظره فخلت به جنا تفرعه وتقرعه^(٣٨)

وأخيراً يصفه من حيث السجية والخلق بالأخذ من فارسه قائلاً:

شرس السجية إن شرس تله ويلين إن لاينت أذعه^(٣٩)

ووصف شاعرنا الناقة حينما تكلم عن الصحراء وسيره الخيالي فيها وأتى بشعر جاهلي الصورة والمعنى - علي سبيل المثال - يصور في قصيدة مدحية سيره في الصحراء إلى الممدوح تصويرًا خياليًا ويصف ناقته فيشبهها بالثور الوحشي مقلدًا الشعراء الجاهلين^(٤٠) ، فيقول:

وفلاة قطعها بفلاة كاللياح ألمع الأزام^(٤١)

في مكان آخر يتابع قوله في تصوير الناقة ويصف نشاطها في قطع الطريق في الصحراء التي لا نبات فيها قائلاً:

إِذا قُطعت من المؤامَةِ مرّةً من الأُمَراتِ ليس به عِلام
تَطاير عن مَناصِمِها حِصاه وسافر عن مَشافِرها اللُّغام^(٤٢)

وأخيراً ينسب نشاط الناقة إلى ثقّتها بالوصول إلى المرعى الخصب ورعيها منه قائلاً:

على ثِقَةٍ بأن سَترى وترعى ربيعاً للطلّيح به مِسام
وأن سَتيء تامكة الأعالي كان سنامها الرعن الخشام^(٤٣)

إذن في هذه الأمثلة رأينا كيف أنّ ابن الرومي يحيا مع الطبيعة مثلما يحيا مع الذباب المغرد والطيور الساجع ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض وهو ينتظم ذلك كله في أنشودة واحدة، لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوحى الخيال والسليقة^(٤٤)

فهذا ابن الرومي "أخذ بمظاهر الطبيعة فمنحها حياة من حياته وتم التعاطف بينه وبينها ولقد نتج عن هذا التآخي فيض من الشعور حيث انتشى مع الطيور والحيوانات الأخرى من جانب واستمع إلى بكاء الرياض وشدوها من جانب آخر، فالطبيعة في كل جارحة من جوارحه"^(٤٥)

ابن الرومي الذي "عاش مضعوفاً مهيناً وحالفه الشقاء و نكد الطالع"^(٤٦) والذي "لم يبتسم له الدهر إلا ساخراً منه" والذي "لقى من الناس تحرشاً وشرّاً وخذله أصدقاؤه وابتعدوا عنه وأقصاه الملوك ولم يقربوه" هذه الشخصية الفريدة من بين شخصيات الأدب "عاش خاملاً مضطهداً متنقصاً ضيق الرزق كثير العوز" أصيب بأولاده الثلاثة وإمرته وأمه وأخيه "لا يغترب أن يلتجأ إلى الحيوانات شأن الشاعر الجاهلي وكأنه في هذه الأوصاف يخاطب المجتمع الإنساني مرة أخرى والحكاية لسان من يقول في لاميته:

ولى دونكم اهلون سيد عمّلس وارقط زهلول وعرفاء جيال^(٤٧)

فى أخذَه بمَظاهِرِ الطَبيعةِ تَسلية عن آلامه التي أصيب بها خلال الدهر وفي حبه للدوام فيها تقوية لذلك الأخذ، فيصور الغالب والمغلوب والقوي والضعيف و يهين بالمقلوب الضعيف شأنه في معاملته المجتمع.

فوصفه عن مظاهر الطبيعة الأليفة والوحشية وصف وجداني كما انه وصف نقلي واقعي يمتاز بدقة النظر لأنه "حريص على إظهار الأشياء دقيقتها وجليلها" عد ابن الرومي

من أصحاب مدرسة المعاني، يقلب المعنى على جميع الوجوه حتى يأتي فيه جميع الصور^(٤٨).

وهذه الطريقة تعتبر حديثة في عصره لم يتعود عليها أبناء جيله من الشعراء والأدباء والنقاد.

الفصل الثاني

المبحث الأول: الأثر النفسي للطبيعة في شعر ابن الرومي:

إن الوصف الذي نحن بصدده الآن إنما هو ذلك النوع الذي يجعل الوجود رسالة غامضة، لا تترجم إلا إذا مرت في بوتقة النفس وحدها النفس هي التي تترجم الوجود، اننا نرى لمعاً وفلذات جميلة منه في شعر ابن الرومي تبلغ حد الروعة كما نشهد في هذه الابيات التي وصف بها ايكه الصباح:

حيثك عنا شمال، طاف طائفها	بجنة، نفحت روحاً وريحاناً
هبت سحيراً، فجاجى الغصن صاحبه	موسوساً، وتنادى الطير إعلاناً
ورق تغني على خضر مهدلة	تسمو بها، وتمس الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب	والغصن، من هزه عطفه، نشواناً ^(٤٩)

نلاحظ في هذه القصيدة، ان الشاعر يعتمد الى الجو والطبيعة واصفا نشوة الطير، صباحاً، حتى كان أغصان الشجر والطبيعة في عرس من النشوة والفرح، أول ما يبدو الوصف النفسي لديه في البيت الثاني اذ يقول:

هبت سحيراً فجاجى الغصن صاحبه	موسوماً، وتنادى الطير إعلاناً ^(٥٠)
------------------------------	---

لقد شهدت عينا الشاعر ترنح الغصون، واهتزازها واقترب احدها من الآخر هذا ما كان يسميه الجاهلي تاوداً، أي تمايلاً لكن ابن الرومي نفذ من هذه الظاهرة، وترجمها ترجمة، او اولها تاويلاً، فاذا الغصن الذي كان يترجح ويقترّب من جاره، اذا هو يناجيه ويحدثه بامر نفسه وشكاته، فالغصن النباتي اللامبالي اصبح انساناً يفيض بما في نفسه من حنين وبوح، فكانه اصبح ابن الرومي ذاته، اوان الشاعر عبر عن ذاته من خلال الغصن بيد ان هذه

الغنائية لا تصفو في شعره، انها لحظة رؤيا خاطفة خاطرة حدس، تشرق في ذهنه، ثم لا يعتم ان تهيب جناحاه، او يتردى من جديد في النقل والتقرير كما يبدو في البيت التالي: (٥١)

ورق تغني على خضر مهدلة تسمو بها، وتمس الأرض أحيانا

هذا البيت يذكرنا بالوصف الحدقي الدقيق، ان الغصن ينخفض ويرتفع تحت وطأة الطير هذه حقيقة علمية لكن ابن الرومي خلع عليها من المبالغة والتخيل ما خرج بها عن برودتها وجفافها، وأورى بها شيئاً من اللفة والحرارة، عندما جعل الغصن يمس الأرض بانخفاضه.

ونعرض الان نموذج اخر يتفق مع النموذج السابق في نزعتة النفسية وفي استغراق الشاعر عبره، فابن الرومي شاعر الطبيعة، كما هو شاعر الوصف فالرياض والطيور ومجالس اللهو والبساتين، فضلا عن الأثمار هذه جميعاً نشاهدها في شعره فهو قد انفرد في تغريده للطبيعة بانغام قلما عرفها الشعر العربي، كما ان وصفه تغلب عليه الصفة النفسية والاعتراف غير المباشر، فكأنه لا يتحدث عن الطبيعة كشئ مستقل منفصل، له وجود ذاتين محدود، بل يغلب إن ينمي إليها أو يضفي عليها ما يعتمل في نفسه من انعكاسات، أشاعت هويتها الظاهرة وتقنعت بمظهر طبيعي، لذلك فان هذا النوع من الوصف هو، في الواقع، امتداد لنفس الشاعر وماساته او فرحته عبر الطبيعة ولعلنا لا نفهم هذا الواقع على حقيقته، إلا إذا تصدينا له من خلال نفسية الشاعر لا مجال للإطالة بذكر المصائب التي اختلفت عليه، وإنما نكتفي بالقول أن حياته كانت سلسلة من الأحزان والماسي فقد فجع بأخيه وزوجه وأولاده وماله، وقد تأذى من ذلك لديه شعور بالاسوداد والتشاؤم والتهالك، فحاول أن يتعوض عما افتقده بمعاصرة الناس، يتصل بهم مادحاً أو مصاحباً، لكن هؤلاء أيضا صدوا وازوروا عنه وربما يكلوا به وكادوا عليه، فجعل يرى أن مصيبتهم بهم، لا تقل عن مصيبتهم بنفسه وبنيه، فأطبقت عليه الحياة بجدار من اليأس، وأناطت به شعورا بتفاهة الحياة وعقمها، فارتد إلى نفسه، يتمضغ قنوطها وعبث مصيرها.

عندئذ اخذ يتحرى عما يسعفه في وحشته وتخاذله، فإذا هو كبيرون أو ككيتس وسائر الرومنطيين، يرتمي بأحضان الطبيعة، أحضان الحياة السالية يتعوض بالطبيعة المحبة،

الكرامة عن الإنسان الأناني الماكر، ولقد جعل يشعر في تأملها وانخطافه عبرها انه يحيا ويتصل بحياة سوية حية في جودها، متحدته في صمتها، أهله مؤنسة في وحشتها. هكذا جعل ينقشع لابن الرومي عالم إنساني آخر وراء ظاهرة الطبيعة الهادئة اللامبالية، انه عالمة الخاص، حقيقته الخاصة، حبه وأشواقه التي استحالَت في الواقع فتلفت بالوهم والحلم لذلك فان الطبيعة التي أحبها ليست طبيعة الناس، بقدر ما هي طبيعة مضمرة تشتعل في ذهنه انعكاس نفسه على مظاهر الكون ولهذا أيضا رأينا شعره في الطبيعة يحفل بكثير من البوح عن حقيقة نفسه، خاصة في رثاء شبابه، حيث يمتزج نعيم الإنسان بحبه للطبيعة وعدن الأنهار.^(٥٢)

نعرض فيما يلي لقصيدته في وصف روضة الربيع، حيث تبدو له الروضة، فتاة جميلة الابراد، وقد تناسجت وشيها سوارى الأمطار وغواديها، أما نسيمها فيسري في الروح كما تسري الروح في الجسد وقد جعلت تتداعى فيها البواكي والشوادي، القران تشدو وتطرب، اما الفراد، فتبكي وحشتها وفرادها:

ورياس تخايل الأرض فيها	خيلاء الفتاة في الابراد
ذات وشي، تناسجته سوار	لبقات بحوكه، وغواد
شكرت نعمة الولي على الوسمي	ثم العهد بعد العهد
فهي تثني، على السماء، ثناء	طيب النشر، شائعا في البلاد
من نسيم، كان مسراه في الأرواح	مسرى الأرواح في الأجساد
حملت شكرها الرياح، فادت	ما توديه السن العواد
منظر معجب، تحية انف	ريحها ريح طيب الأولاد ^(٥٣)

إن الروضة بما فيها من وشي الزهور والأصباغ، لم تعد في حدقة الشاعر وتأمله روضة، بل إنها فتاة سوية ترتدي الأثواب المزركشة، وهذا التشابه بين روضة الطبيعة وروضة المرأة، لم يسنح له في صدفه التشبيه وتقليده بل انه مشبع بنفسية الشاعر ومضاعفات وجدانه وأحواله فأعصابه في كيميائها المظلمة تنزع بأمانيه وشهواته من عالم الحقيقة لتحقيقها وتشخصها في عالم الوهم والخيال إن فتاة الروضة ليست، في الواقع، سوى

تحول نفسي لفتاة الحب فقد طالما تصدى الشاعر للفتيات العباسيات، ذوات الجمال لكنه في عوزة وتهالك صحته، كان يعجز عن تحقيق أمنيته بهن، ولبثت المرأة المترفة الرخية، ظمأ دائماً في نفسه، سراباً يتباعد ويهرب، حتى إذا برحت به الأشواق، تحولت حسرة المرأة، مرارة الجسد والحب والجمال، تحولت تلك الحسرة وانتقلت إلى الطبيعة حيث التبتت وتشخصت فيها فأصبحت الطبيعة فتاة ابن الرومي يتأملها ويناجيها ويتودد إليها ويعبث بها دون أن تصده أو تدل عليه.

إن الروض مظهر سلبي يظهر واقعه كما قدرته له الطبيعة، أما ابن الرومي فلم ينسخ ذلك الواقع العادي بل شطر منه، وتولاه بنفسه، فترأى له إن الأرض في تالودها وأغصانها وأزهارها، إنما هي تختال وتتمايل وتتشافف بذاتها كالحسناء الخيلاء ليست في أرض الروض بل من نفس الشاعر وقد خلعها من نفسه عليها، فلم تعد أرضاً من خلال المطلق والعلم، بل أرضاً من خلال حدقة الذات والضمير، فابن الرومي لا ينقل في ذلك مظهر الطبيعة في الروضة بل يفسره ويعلله ويظهر مراميه أو يفيض رموزه فكأنه رسالة صامته الحروف ينبغي أن ينفذ منها إلى المعنى الذي تشير إليه به هذا واقع الوصف النفسي التعليلي في شعره وهو يمثل أيضاً واقعه مع الطبيعة التي انحلت في نفسه وانصهرت مع الإنسان السوي الحي.

المبحث الثاني: الخصائص الفنية للقوائد الوصفية للطبيعة:

يعتبر وصف ابن رومي "من أجود الوصف وأكثره للطبيعة لأنه كان يرود البساتين حول بغداد ودجلة وينادم بها من ينادم ولا يغفل عما حوله من مناظر الماء والزهر والندى والطير المغرد على الأغصان".^(٥٤)

وهذه الكثرة الكثيرة من شعره الوصفي للطبيعة جعلنا نعتني بدراسة الطبيعة المتحركة في أشعاره فبعد دراسة مضامين الوصف نتناول البحث حول الخصائص الفنية للقوائد.

ويمكن ملاحظة السمات التالية في وصف الحيوان:

١ - خصص ابن الرومي أشعاره في وصف الحيوانات ضمن شعر الطرد كما رأينا في عينيته التي يقول فيها:

وقد أعتدي للطير والطير هجع ولو أوجست مغداي ما بتن هجعا^(٥٥)

أو داليتها التي فيها يقول:

وقد أغتدي للوحش والوحش هجع ولو نذرت بي لم تبت وهي هجد^(٥٦)

يستطرد غالباً بعد مقدمة غزلية قائلاً (وقد اغتدى) كما نشاهد وربما استخدم الوصف خلال قصائد المدح أو الفخر شأنه في هذا شأن المقلدين كما يصف فرسه خلال قصيدة يفخر فيها بنفسه فيقول:

وذاك عتادي فوق أجرد سابح يريح زمر الجري من منغر رحب^(٥٧)

وقد تكون على بعض قصائده في وصف الحيوان غلبة أسلوب النفي بـ "ما" أو "ولا" وهي دائمة التكرار كما نشاهدها في وصف الأسد أو الصل أو العقاب أو الظلي. وهذه الصيغة تعد ميزة أسلوبية في عمله البنائي لهذا الموضوع من الوصف لأنها تتردد في مواضع كثيرة.

٢ - كثرة التشبيهات وتواليها "يحتفل ابن الرومي احتفالاً شديداً بالتشبيه في أوصافه" ^(٥٨) فان التشبيه ملازم أسلوب الوصف ملازمة شديدة. نكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره أحزان الحمام كما ذكرناه سابقاً:

تتداعي بها حمام شتى كالبوأي وكالقيان الشوادي^(٥٩)

٣ - فن التصوير في شعره الوصفي: كان ابن الرومي يكثر من استخدام أداة التجسيم في شعره كما كان يكثر من استخدام أداة التشخيص^(٦٠)

إن الطيور عنده تتوح وتعشق وتبوح الغرام وتشكو^(٦١) فهذا المشهد يحاكي مجالس الأنس والخلة أكثر من أن يكون حكاية عن روضة الحيوانات وهذه الملامح الإنسانية تدل على انعكاس حالة نفسية تجعل القصيدة شعراً وجدانياً.

٤ - الوضوح: عبر ابن الرومي عن الحياة وظواهر الوجود بأسلوب واضح متخذاً منهج الاستقراء والتحليل وهذا جعل أسلوبه تحليلياً متأثراً بالطرائق الفلسفية في العصر العباسي . فدل ذلك كله على سعة ثقافته وصحة تفكيره وعمق عقله كما جعل الشاعر موضوع الوصف "شاملاً لكثير من المواقف الجزئية وكان ترتيبه لهذه المواقف ترتيباً منطقياً بما في ذلك موقف المقدمة الذي يعد أسلوباً فنياً ليس للشاعر عنه غنى ومن ثم استغلاله هذا الأسلوب وفق مقتضيات المعاني العامة في القصيدة لتتدرج مواقفها جميعها وفق نظام منطقي يبرز هدف

الشاعر ويصل إلى غاية أو نتيجة^(٦٢) وهذا ما جعل قصائد ابن الرومي تشبه الأعمال النثرية في وضوحه من جهة وفي عدم اهتمام الشاعر بالعبارة في سبيل الوضوح من جهة أخرى.^(٦٣)

٥ - صلته بالشعر التعليمي: لا نبالغ إذا قلنا أن شعره الوصفي يدخل حيز الشعر التعليمي أحياناً. فمعرفة الشاعر بالعلوم الطبيعية من ناحية ومقدرته على العلوم اللغوية من ناحية أخرى تجعله يسترسل ويستقصي ويفصل ويطنب. إلا أن هذا لم يكن خروجاً على الوحدة الموضوعية في شعره.^(٦٤)

انظر حينما يصف الأسد يعد أسماءه فيقول:

مسمي بأسماءٍ فمنهن ضيغم ومنهن ضرغام ومنهن قسور^(٦٥)

٦ - عد ابن الرومي من أصحاب مدرسة المعاني، يقلب المعنى على جميع الوجوه حتى يأتي فيه بجميع الصور وهذه الطريقة تعتبر حديثه في عصره لم يتعود عليها أبناء جيله من الشعراء والأدباء والنقاد.

٧ - الوحدة العضوية في قصائده: إن من يبحث في أشعار ابن الرومي يلاحظ "كل بيت يربط - غالباً - بأخيه من قبل ومن بعد لان المعنى لا يكتمل إلا إذا قرأنا ما قبله وما بعده فالمعاني عنده تتولد بعضها من بعض ولا سبيل إلى الفصل بينها في كثير من الأحيان"^(٦٦)

٨ - استخدام البديع: استخدم الشاعر البديع في أشعاره استخداماً مقبولاً فالجناس بأقسامه شاع في أبياته دون تكلف وتصنع، فقد استخدم الجناس التام في وصف الناقة:

وفلاةٍ قطعها بفلاةٍ كاللياح الملمع الأزلام^(٦٧)

كما جانس بين أحداقها وأشداقها في وصف الفهد^(٦٨)

وتقرعه وتقرعه في وصف الفرس وعلى هذا النمط يستمر استخدام الجناس المضارع بين هجع وهجد . والمصحف بين ناحا وباحا في وصف الطيور والطباق مشهود بين مثنان وفراد وقران و واحد في قوله:

من مثنانٍ ممتعٍ قرانٍ وفرادٍ مفجعاتٍ وحادٍ^(٦٩)

فعلى هذه الشاكلة نجد شواهد كثيرة من استخدام الجناس والطباق الا انه لم يكن يكثر من هذين اللونين بل يستخدمهما حيناً بعد حين.

الخاتمة

نستنتج من هذا البحث حول ابن الرومي ووصفه الطبيعة المتحركة، أنه أخذ بمظاهر الطبيعة يفتش عن آلامه التي أصيب بها خلال وجوده في هذا الدهر فأسرع إليها ووجد فيها صديقه الحميم أي الرياض والطيور.

فوصفه عن مظاهر الطبيعة، وصفاً وجدانياً حيث وصف الحيوانات الأليفة والوحشية وفق نزعة الوجدانية غالباً وإن لم ينس الوصف النقلي والواقعي في هذا المجال.

الهوامش :

- (١) جورج غريب، ابن الرومي دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م، ص ٦٤
- (٢) سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ص ٨٤.
- (٣) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، المجلد الأول، شرح مجيد طراد، الطبعة الأولى، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨ م، ٣/ ٧٠٢.
- (٤) عباس محمود عقاد، ابن الرومي حياته من شعره، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٣١م، ص ٣٠٩.
- (٥) الديوان، ١/ ٢٨
- (٦) الديوان، ٤، ٢٠٤، رنقت: ضعفت - غابت، الورس: نبات ذو لون أصفر مذعزع: منتشر شول: نقص. أضرع: ضعف.
- (٧) عبد المجيد الحر، ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى، ص ٣٥٢.
- (٨) الديوان، ٦/ ٢٠٨.
- (٩) روفون جست، ابن الرومي، حياته وشعره، ترجمة حسين نصار، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م، ص ٤٢١.
- (١٠) الديوان، ٦/ ٥٠١.
- (١١) عباس محمود عقاد، ابن الرومي حياته من شعره، ص ١٩٨.
- (١٢) الديوان، ٤/ ٣٧٥، هجع: هاجع: نائم أوجس: أحس مغداي: مكان الغدو. بتن: نمن. تمابي: جعلاني تاما وكاملا.
- (١٣) الديوان، ٤/ ٣٧٦.
- (١٤) المصدر نفسه، ٤/ ٣٧٦.
- (١٥) أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب، دار المعارف، القاهرة، المجلد الحادي عشر الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٤٠٥.
- (١٦) الديوان، ٦/ ٢٨٧
- (١٧) المصدر نفسه، ٦/ ٢٨٧
- (١٨) المصدر نفسه، ٦/ ٢٨٧
- (١٩) المصدر نفسه، ٦/ ٢٨٧
- (٢٠) المصدر نفسه، ٦/ ٣٠٨

- (٢١) الديوان ، ٦ / ٣٠٨ .
- (٢٢) سهيل سليمان وزملاءه، الوافي في الأدب العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، المجلد الاول، ص ٤ ٢٨
- (٢٣) الديوان، ٣ / ٧٠٢ .
- (٢٤) ايليا الحاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م ، ص ٢٠٧ .
- (٢٥) جورج غريب، ابن الرومي، ص ٢٥٩ .
- (٢٦) علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، بيروت ، دار النشر للجامعيين، ١٩٦٠ م، ص ١٣٩ .
- (٢٧) الديوان، ٤ / ٥٧٥ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ٤ / ٥٧٥ .
- (٢٩) الديوان، ٤ / ٥٧٦ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، ٤ / ٥٧٦ .
- (٣١) النويري، ١٠ / ٢٨٦ .
- (٣٢) الديوان ، ٦ / ٦٠٧، الخفيدي: السريع .الذليق :الحديد .النقيلة :رقعة النعل .
- (٣٣) الديوان ، ٦ / ٧٢٦ .
- (٣٤) المصدر نفسه ، ٦ / ٧٢٦
- (٣٥) المصدر نفسه ، ٦ / ٧٢٦
- (٣٦) المصدر نفسه ، ١ / ٧٠٥ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، ١ / ٧٠٥ .
- (٣٨) الديوان ، ٤ / ٣٠٥ .
- (٣٩) المصدر نفسه، ٤ / ٣٠٥ .
- (٤٠) كمال الحريري، الألوان والصور في شعر ابن الرومي، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، ٤٥٩ .
- (٤١) عباس محمود عقاد، ، ابن الرومي حياته من شعره ، ص ٢١٥ .
- (٤٢) الديوان، ٦ / ٢ .
- (٤٣) الديوان ، ٦ / ٧١ .
- (٤٤) ايليا الحاوي، فن الوصف، ص ٣١٩ .
- (٤٥) جورج غريب، ص ٧٣ .
- (٤٦) البستاني، بطرس، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩٧ م، ص ٢٣٩ .
- (٤٧) الشنفرى، عمرو بن مالك، ديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١ م، الطبعة الأولى، ص ٥٩ .
- (٤٨) بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، ص ٢٥١ .
- (٤٩) الديوان، ٤ / ٥٧٦ .
- (٥٠) المصدر نفسه، ٣ / ٣٧٩ .
- (٥١) ايليا سليم الحاوي، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠، ص ٣١ .

- (٥٢) إيليا الحاوي، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، ص ٣٤.
- (٥٣) الديوان، ٤ / ٢٤٦.
- (٥٤) أحمد علي محمد، اثر التربة العقلية في العقيدة العربية، السيروان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٢٣٩.
- (٥٥) الديوان، ٤ / ٣٧٥.
- (٥٦) المصدر نفسه، ٥ / ٧٤٠.
- (٥٧) الديوان، ٥ / ٥٠٧.
- (٥٨) أحمد علي محمد، اثر التربة العقلية في العقيدة العربية، ص ٢٣٩.
- (٥٩) الديوان، ٤ / ٥٧٦.
- (٦٠) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٣ م، ص ١٠١.
- (٦١) إيليا الحاوي، فن الوصف، ص ٢٠٧.
- (٦٢) أحمد علي محمد، اثر التربة العقلية...، ص ١٥٧.
- (٦٣) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص ٩٦.
- (٦٤) أحمد علي محمد، أثر النزعة العقلية، ص ٨٨.
- (٦٥) الديوان، ٤ / ٥٧٥.
- (٦٦) محمد عبد القادر أشقر، المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي: ص ١٢٥.
- (٦٧) الديوان، ٦ / ٧١.
- (٦٨) المصدر نفسه، ٤ / ١١٨.
- (٦٩) المصدر نفسه، ٣ / ٧٠٢.

المصادر:

- ١- ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، المجلد الأول، شرح مجيد طراد، الطبعة الأولى، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨ م.
- ٢- إيليا الحاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م.
- ٣- إيليا سليم الحاوي، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠.
- ٤- أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب، دار المعارف، القاهرة، المجلد الحادي عشر الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.

- ٥- احمد علي محمد، اثر التربة العقلية في العقيدة العربية، السيروان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.
- ٦- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٧- جورج غريب، ابن الرومي دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م.
- ٨- سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر.
- ٩- سهيل سليمان وزملاءه، الوافي في الأدب العربي، دار الفكر اللبناني، بيروت، المجلد الأول،
- ١٠- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٣ م.
- ١١- الشنفرى، عمرو بن مالك، ديوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.
- ١٢- روفون جست، ابن الرومي، حياته وشعره، ترجمة حسين نصار، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.
- ١٣- عباس محمود عقاد، ابن الرومي حياته من شعره، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٣١م.
- ١٤- عبد المجيد الحر، ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى.
- ١٥- علي شلق، ابن الرومي في الصورة والوجود، بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٦٠ م.
- ١٦- كمال الحريري، الألوان والصور في شعر ابن الرومي، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى.
- ١٧- محمد عبد القادر أشقر: المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي: